KARLIĞA, B., "Dünden Bugüne Türk Dünyası'nda İslam Düşünce Geleneğinin Oluşumu ve Gelişimi"
Diyanet Arapça İlmî Dergi; 6 (2024): 232-261
Tercüme makale / Translation article

DÜNDEN BUGÜNE TÜRK DÜNYASI'NDA İSLAM DÜŞÜNCE GELENEĞİNİN OLUŞUMU ve GELİŞİMİ

FORMATION and DEVELOPMENT of ISLAMIC THOUGHT TRADITION in the TURKIC WORLD FROM PAST to PRESENT

BEKİR KARLIĞA*
PROF. DR.

ÖZ Altay Dağları çevresinde göçebe olarak yaşayan Türk kabileleri, Tuman Yabgu ve Mete Han liderliğinde Orta Asya steplerine yayılarak Hazar'dan Hindistan'a uzanan geniş bir bölgede ilk büyük Türk devletini kurdular. Başlangıçta Animizm ve Şamanizm inançlarına sahip olan Türkler, Maniheizm, Budizm, Nesturi Hristiyanlık, Yahudilik gibi farklı dinleri benimsedi. 751 Talas Savaşı sonrası İslamiyet'i kabul etmeye başlayan Türkler, bu dinin Orta Asya'da ve ötesinde yayılmasında büyük rol oynadı. Abbasiler döneminde Horasan ve Maveraünnehir bölgeleri bilim, kültür ve düşünce merkezi haline geldi. Bu dönemde tefsir, hadis, felsefe, matematik ve astronomi gibi alanlarda önemli eserler üretildi. Karahanlılar, Samaniler ve Gazneliler, İslamiyet'i geniş coğrafyalara yayarken bilim ve sanat alanında da gelişmeler sağladılar. Selçuklular, Malazgirt Zaferi ile Anadolu'ya hakim oldu ve Haçlılara ve Moğollara karşı mücadele etti. Osmanlılar ise Bizans topraklarını fethederek İstanbul'u aldı ve güçlü bir cihan devleti kurdu. Türk devletleri, İslamiyet'i geniş coğrafyalara yayarken bilim, sanat ve kültürde önemli ilerlemeler sağladı ve dünya tarihine yön veren medeniyetler arasında yer aldı.

Anahtar Kelimeler: Türk Dünyası – Orta Asya – Horasan – Maveraünnehir – İslam Düşünce Geleneği.

ABSTRACT The Turkic tribes, originally nomadic and residing around the Altai Mountains, expanded into the steppes of Central Asia under the leadership of Tuman Yabgu and Mete Khan, and established the first great Turkic state, spanning a vast region from the Caspian Sea to India. The Turks, who initially believed in Animism and Shamanism, later embraced various religions, including Manichaeism, Buddhism, Nestorian Christianity, and Judaism. Following the 751 Battle of Talas, the Turks began to adopt Islam and played a significant role in its spread throughout Central Asia and beyond. During the Abbasid period, the regions of Khorasan and Mavarannahr became thriving centers of science, culture, and intellectual thought. During this period, significant works were produced in various fields, including tafsir, hadith, philosophy, mathematics, and astronomy. The Kara-Khanids, Samanids, and Ghaznavids, while spreading Islam across vast regions, also contributed to advancements in science and art. The Seljuks established their dominance in Anatolia following the victory at the Battle of Malazgirt and engaged in battles against both the Crusaders and the Mongols. The Ottomans, on the other hand, conquered Byzantine lands, took control of Istanbul, and established a powerful world state. While spreading Islam across vast regions, Turkish states made significant advancements in science, art, and culture, establishing themselves as key civilizations that shaped world history.

Keywords: Turkic World – Central Asia – Khorasan – Mavarannahr– Islamic Thought Tradition.

* 0000-0002-0981-601X | karliga.b@gmail.com
Geliş/Received 01.11.2024 – Kabul/Accepted 16.12.2024

قارليغا، ب.، "نشأة التفكير الإسلامي في العالم التركي وتطوره من الماضي إلى الحاضر"
المجلة العلمية لرئاسة الشؤون الدينية التركية؛ 6 (2024): 232-261
المقالة المترجمة

نشأة التفكير الإسلامي في العالم التركي وتطوره من الماضي إلى الحاضر*

بكر قارليغا
الأستاذ الدكتور

الملخص

إن القبائل التركية التي كانت تعيش كبدو رُحّل حول جبال ألطاي، انتشرت وامتدت إلى سهوب آسيا الوسطى تحت قيادة طومان يابغو ومَتَه خان وأنشأت أول دولة تركية عظيمة في منطقة واسعة تمتد من بحر قزوين إلى الهند. وكان الأتراك قديما يعتنقون بالأرواحية (الإحيائية) والشامانية، ثم اعتنقوا ديانات مختلفة مثل المانوية والبوذية والمسيحية النسطورية واليهودية. ولعب الأتراك، الذين بدأوا اعتناق الإسلام بعد معركة طلاس عام ٧٥١، دورًا كبيرًا في انتشار هذا الدين في آسيا الوسطى وما ورائها. وفي العصر العباسي، أصبحت مناطق خراسان وما وراء النهر مراكز للعلم والثقافة والفكر. خلال هذه الفترة، كما تم تأليف أعمال مهمة في مجالات مثل التفسير والحديث والفلسفة والرياضيات وعلم الفلك. كما أن القراخانيين والسامانيين والغزنويين نشروا الإسلام في مناطق جغرافية واسعة، وأحرزوا أيضًا تقدمًا كبيرا في مجالات العلوم والفنون. أما السلاجقة فقد سيطروا على الأناضول بعد الانتصار في معركة ملاذكرد، وقاتلوا الصليبيين والمغول. وفتح العثمانيون الأراضي البيزنطية، وضموا إسطنبول إلى أراضيهم وأنشأوا دولة عالمية قوية. فالدول التركية بينما كانت تنشر الإسلام في مناطق جغرافية واسعة، فقد حققت تقدمًا كبيرًا في العلوم والفنون والثقافة أيضا وتبوأت مكانها بين الحضارات التي شكلت تاريخ العالم.

الكلمات المفتاحية: العالم التركي – آسيا الوسطى – خراسان – بلاد ما وراء النهر – تقاليد الفكر الإسلامي.

* إن هذه الدراسة التي تُرجمت من قِبل مصطفى حمزة، هي النسخة العربية، -بتعديلات قليلة في بعض آرائها من قبل مؤلفيها- لمقالة نشرت سابقا باللغة التركية وقد أعطى صاحب المقالة لنا حقوق النشر المتعلقة بترجمتها إلى اللغة العربية. ومن يرغب بقراءة نسخة المقالة التركية الأصلية يمكنه الحصول عليها من خلال المعلومات المقدمة أدناه:
Bekir Karlığa, "Dünden Bugüne Türk Dünyası'nda İslam Düşünce Geleneğinin Oluşumu ve Gelişimi", *Yeni Türkiye*, cilt: IX, sayı: 53, 2013: 507-522.

المدخل

كان الأتراك الذين يعيشون حول جبال ألطاي يجوبون آسيا شرقًا وغربًا على ظهور الخيل، يرعون حيواناتهم ويقومون بأعمال زراعية بسيطة. انطلق الفرسان من جبال أورال ألطاي وتوغلوا داخل حدود الصين وسيطروا على المنطقة.

تسببت الدولة التي أسسها تيومان يابغو تدريجيًّا في تكاثر جنس جديد في سهوب غرب آسيا. قام مته خان (أوغوز) الذي خلف تيومان يابغون بجمع قبائل الأوغوز التي تعيش حول بحيرة بايكال، واستولى على المناطق الممتدة من الهند إلى بحر قزوين. تُعَدّ ملحمة أوغوز كاغان التي تروي انتصارات مته خان (أوغوز)، من أوّل النصوص التركية.

في القرن السادس الميلادي اتخذ أولوغ يابغو مدينة أوتوكين بالقرب من قرقوروم عاصمة لدولته، وتوسعت دولته على يد أبنائه شرقًا، من المحيط الهادي إلى سد الصين، وغربًا من شمال بحر قزوين إلى نهر أورال والفولغا، وفي الجنوب، إلى كشمير، وأسسوا واحدةً من أهم الولايات التركية.

على الرغم من أن تاريخ الدول التي سيطر عليها الأتراك في فترة ما قبل الإسلام يذهب إلى جذور بعيدة الغور في التاريخ، فإن ما يهمّنا من هذا التاريخ هو منتجات الأفكار المدوّنة. وفي هذا السياق، تأتي ملحمة ألب أر تونغا التي تعود إلى القرن السابع قبل الميلاد، وملحمة الحاكم التركي شو التي ظهرت في القرن الرابع قبل الميلاد، وملاحم الهون والأوغوز التي ظهرت في القرن الثالث قبل الميلاد، وملاحم قوك تورك (بوزقورت – أرغَنَكون) في القرن السابع الميلادي، وملاحم الأويغور التي ظهرت في القرن الثامن الميلادي، لتشير إلى بنية فكرية غنية.

فالأتراك الذين آمنوا في البداية بالروحانية وإله السماء، أصبحوا فيما بعد شامانيين. ثم اعتنقوا المانوية بعض الوقت، وأصبح معظمهم بوذيين، واعتنق بعضهم المسيحية النسطورية. وكانت هناك أيضًا قبائل تركية اعتنقت اليانية والزرادشتية والمازدية والطاوية، إلى جانب أتراك الخزر الذين اعتنقوا اليهودية.

كانت الحضارة التركية ما قبل الإسلام حضارة بدوية أكثر منها حضارة تقوم على حياة الاستقرار، وعلى حد تعبير المرحوم نهاد سامي بَنارلي: «إن الحضارة التي أسسها الأتراك، وحافظوا عليها منذ أعماق التاريخ إلى قرون الحضارة

الإسلامية كانت حضارةَ قماشٍ وطوبِ لَبِنٍ، وبشكل أكثر أصالةً وشمولًا، كانت حضارة خيمة».[1]

وفي فترة ما بعد الإسلام، أُتِيحت لجميع وحدات التقليد الفكري الإسلامي، وفي مقدمتها تراكم العلوم والفكر والثقافة والفن والحضارة- أن تتقدم وتنتشر بسرعة في جغرافية واسعة وأحواض ثقافية مختلفة عاش فيها الأتراك أو هيمنوا عليها.

عندما تقدّم المسلمون نحو سهوب آسيا الوسطى عبر العراق وإيران ووصلوا إلى إقليم خراسان وما وراء النهر، كانت البوذية والمانوية وهي خليط من المسيحية والزرادشتية والمسيحية النسطورية واليهودية منتشرة بين الأتراك من شعوب هذه المناطق.

وبالنظر إلى كثافة واستمرارية هذه الأحواض الثقافية، يمكننا تقييم هذا التطور تحت ستة عناوين مختلفة: عصر التكوين، وعصر السلاجقة، وعصر الإلخانيين، وعصر المماليك، والعصر التيموري، وعصر العثمانيين.

1- عصر التكوين:

تُطلَق على المنطقة الجغرافية الخصبة التي تبدأ من «خراسان» التي تعني بالفارسية مشرق الشمس أو منبع الضوء، إلى عمو دريا (نهر جيحون) الذي يشكل أحد فرعي بحر خوارزم التي تُعرَف عند الأتراك باسم çay ardı، سر دريا (نهر سيحون)؛ اسم بلاد ما وراء النهر، وتشكل حوضًا مهمًّا منذ أقدم فترات التاريخ. وقد عاشت هذه المنطقة بيئة مهمّة يتداخل فيها العلم والفكر والثقافة والحضارات، ويتولّد فيها تركيبات جديدة، بسبب موقعها الجغرافي المهمّ عند ملتقى طرق الشرق والغرب والشمال والجنوب، وموقعها في منتصف خطوط التواصل بين الصين والمحيط الأطلسي، وبين السهوب الروسية إلى المحيط الهندي.

كانت هذه البلاد واقعة تحت حكم الأخمينيين (الفرس)، ثم دخلت جزئيًّا تحت حكم الإسكندر، ثم تقاسمها شعوب الساكا والأرساسيد (البارثيين)، ثم أصبحت تحت هيمنة الساسانيين بدءًا من عام 224 ميلادي.

بدأ الإسلام يتغلغل في إيران وخراسان في عهد خليفة عمر (رض)، وتحققت الفتوحات الحقيقية في عهد خليفة عثمان (رض). وقد شُوهِدت الجيوش الإسلامية بقيادة قتيبة بن مسلم أول مرة في منطقة ما وراء النهر في

[1] Banarlı, *Resimli Türk Edebiyatı Tarihi*, 1/81.

أعوام (710-716م). واستغرق دخول الأتراك إلى الإسلام بشكلٍ جماعيّ زمنًا طويلًا. فبعد حوالي قرنين من ظهور الجيوش الإسلامية الأولَ في المنطقة، واعتناق الحاكم القراخاني الشهير صاتوك بغره خان الإسلام، واتخاذه اسم عبد الكريم في عام 920م؛ دخلت كتلة كبيرة من القبائل التركية في الإسلام.

وكان للأتراك دورٌ كبيرٌ في التمرد الذي بدأ به أبو مسلم الخراساني ضد الأمويين على وجه الخصوص، وأسفرت عن قيام الدولة العباسية، وسرعان ما بلغوا مكانة قوية في بغداد بعد تأسيس الدولة العباسية؛ بسبب نجاحهم المتميز في المهارات العسكرية. وعندما جلس على العرش الخليفة المعتصم عام 833م، وكانت أمه تركية، شكل جيشًا من أتراك بخارى وسمرقند وفرغانة وأشْرُوسنَة[2]. وسرعان ما أصبح القادة المختارون منهم أصحاب قرار في الإدارة العباسية، وكان الحكام العباسيون، عند خروجهم إلى مكان ما، يتركون هؤلاء القادة الأتراك نوابًا عنهم؛ لأنهم كانوا محلّ ثقة عندهم.

وكذلك، تعلّم بعضهم اللغة العربية إلى جانب لغتهم الأم، وأتقنوها إلى درجة نظمهم القصائد بالعربية. وكان منهم أحمد بن طولون مؤسسة الدولة الطولونية فيما بعد، والوزير العباسي الشهير الفتح بن خاقان. وتشير المصادر إلى أن الفتح بن خاقان الذي كتب من أجله المفكر المعتزلي الشهير الجاحظ كتابًا في فضائل الأتراك، كانت له مكتبة فريدة من نوعها، وكان يحضر داره فصحاء الأعراب وعلماء الكوفيين والبصريين، ويذكرون أنه كان شاعرًا. بل، إن عالم الأدب العربي الشهير المبرد يذكره، ويسوق بعض أشعاره أمثلة في النحو العربي.[3]

بعد انتصار الخليفة مأمون على أخيه أمين بمساعدة الإيرانيين، شعر بتعاطف خاص تجاه الإيرانيين، وفضّل ترك إدارة المناطق الشرقية من الإمبراطورية للحكام من أصل إيراني. وكان منهم، طاهر بن حسين (ت: 822م) الذي عيّنه واليًا على خراسان، وأسّس السلالة الطاهرية من خلال تلاوة الخطب باسمه بعد فترة. وكذلك عيّن الخليفة المأمون أحفاد سامان خدات حاكم بلخ، الذي أسلم في منتصف القرن الثامن، على ولاية المناطق التي يعيش فيها الأتراك بكثافة، مثل سمرقند وفرغانة وشاش وهرات. وقد أعلن أحمد بن أسد من هؤلاء القادة، استقلال السلالة السامانية، وأسس السلالة التي تحمل الاسم نفسه.[4]

---

[2] **ظهر الإسلام** لأحمد أمين، 3/1.

[3] **ظهر الإسلام** لأحمد أمين، 46/1-47، نقلاً عن **معجم الأدباء** لياقوت الحموي، 116/6.

[4] Barthold, *Moğol İstilâsına Kadar Türkistan*, s. 224-227.

وبينما استولى الأتراك على السلطة العسكرية في العاصمة العباسية من جهة، فقد اكتسبوا من جهة أخرى، مكانة فاعلة في المجالات السياسية والاجتماعية والفكرية في بلاد ما وراء النهر، حيث سيطرت هاتان السلالتان، وخاصة في المناطق الخاضعة لسيادة السامانيين.

وسّع بنو سامان حدود هيمنتهم في بداية القرن العاشر، وجعلوا بخارى عاصمة لهم، وأصبحت مركزًا للعلوم والثقافة والفنون، وانتشرت المبادرات الفكرية الكبرى التي ظهرت في هذه المدينة إلى جميع أنحاء خراسان وما وراء النهر في وقت قصير. وسار على آثار الساسانيين: البويهيون والزياريون والصفاريون والقراخانيون والغزنويون والخوارزميون والسلاجقة، وتحولت بلاد ما وراء النهر بالفعل إلى مركزٍ للعلم والفكر الإسلامي.

فالمدن القائمة في المناطق المتجاورة بين إيران وأفغانستان وتركمانستان اليوم، مثل؛ مرو وسرخس وبلخ وبخارى وترمذ ونسا وهرات وسمرقند وطشقند ونيسابور وفرغانة وكاش ونخشب وخوارزم وفاراب وجرجان وخجند وغيرها، أسهمت جميعًا في العلم والفكر الإسلامي، وفتحت الأبواب لحضارة جديدة.

فهذه المنطقة، التي انتشرت وتطورت فيها الديانات والمذاهب والثقافات المختلفة، قدمت منذ البداية أسماء كثيرة في عالم العلم والفكر الإسلامي، فكان فيهم حشد من المفسرين وعلماء الحديث تلقوا تعليمهم في هذه المنطقة. وكان فيهم على سبيل المثال أربعة من أصل أصحاب مصنفات كتب الحديث الستة التي تشكل ثاني أكبر مصدر للدين الإسلامي بعد القرآن الكريم: (البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي).

ومن أصحاب التفاسير الذين ينحدرون من خراسان وبلاد ما وراء النهر: مقاتل بن حيان، ومقاتل بن سليمان، وعطاء الخراساني، وربيع بن أنس، وابن مهران النيسابوري، والثعلبي، والقُشيري، والواحدي، والبغوي، ونظام الدين النيسابوري.

حملت الفتوحات التي وصلت إلى هذه المناطق عددًا كبيرًا من الصحابة والتابعين، ووضعوا الحجر الأساس لتطور علم الحديث هنا. فعاش في هذه المناطق: أبو برزة الأسلمي وعبد الرحمن بن سمرة وعبد الرحمن بن يعمر، من أوائل من خدموا علم الحديث. ثم سار على خطاهم: إسحاق بن راهويه والإمام مسلم بن الحجاج القشيري والحاكم النيسابوري، في نيسابور. وابن السندي وأبو عوانة، في إسفرائين. ومحمد بن أسلم في طوس، وعبد الله بن المبارك وأبو إسحاق المروزي وأحمد بن علي المروزي في مرو، وعثمان بن سعيد

الدارمي وابن المنذر الهروي في هرات، والضحاك بن مزاحم وسعيد بن منصور وقتيبة بن سعيد وأبو علي البلخي في بلخ، ومحمد بن عيسى الترمذي في ترمذ، والإمام النسائي في نسا، والإمام البخاري في بخارى. وقد نشط هؤلاء جميعًا في جمع روايات الحديث والعناية بها.

وكذلك، شهدت المنطقة منذ العصور الأولى ظهور عدد كبير من العلماء والمفكرين في مجالات الفقه والتصوف واللغة العربية وآدابها وعلم الكلام وغيرها، ولا يمكن حصر أسمائهم هنا. فكان الفارابي وابن سينا والبيروني في مجال الفلسفة والعلوم الإسلامية، والسرخسي والمرغيناني في مجال الفقه، والإمام الماتريدي مؤسس المذهب الماتريدي وأبو المعين النسفي في مجال الكلام، ينحدرون جميعًا من خراسان وبلاد ما وراء النهر.

ولد أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ الملقب بالفارابي، وهو المؤسس الحقيقي للفلسفة الإسلامية وأحد أهم المفكرين وأبرزهم في الفكر العالمي بشكل عام والفكر الإسلامي بشكل خاص، في عام 873م، في قرية واسيج التابعة لمدينة فاراب في بلاساغون الواقعة في بلاد ما وراء النهر. تلقى هنا تعليمه في قريته، ثم انتقل إلى خراسان وبغداد حيث درس الطب والرياضيات والفلسفة، وأقام الفيلسوف الكبير ببلاط سيف الدولة الحمداني، وعاش بقية حياته في دمشق في سوريا إلى أن وافته المنية سنة 950م وهو في الثمانينيات من عمره.

بلغ عدد الكتب التي ألفها هذا المفكر التركي الكبير، المعروف بالمعلم الثاني Magister Secundus، 160 كتابًا في مجال الفلسفة والرياضيات والموسيقى، والكتب المنسوبة إليه في المصادر تبلغ 180 كتابًا، تُرجِمت تسعة كتب منها إلى اللاتينية[5] و 27 كتابًا منها إلى العبرية.

كان السلطان محمود الغزنوي وابنه مسعود يبديان اهتمامًا كبيرًا بالعلم والعلماء، وكانت لهما إسهاماتهما في تطوير العلم والفكر الإسلامي ضمن حدود إمبراطوريتهما الشاسعة. فالعالم والمفكر الإسلامي الشهير البيروني الذي ولد في خوارزم حوالي عام 973م، حظي باحترام كبير في عهد السلطان محمود الغزنوي وابنه مسعود ومودود الغزنوي. وأُتيحت الفرصة لهذا العالم والمفكر الكبير للإنتاج العلمي الكبير، وتأليف ما يزيد عن 113 كتابًا، منها: 35 كتابًا في علم الفلك، و23 في علم التنجيم، و9 كتب في الجغرافيا، و10 كتب في

---

[5] d'AIvemy, Avicenna Latinus, *Archive d'Hûtoire Doctrina- le et Litteraire du Moyen Age*, XXVIII, XXX, XXXI, XXXIII, XXXV.

الجيوديسيا، و8 كتب في الحساب، والبقية في الهندسة والميكانيك والصيدلة والرصد والمعادن الثمينة والتاريخ والفلسفة والأدب. ولسوء الحظ، لم يصل منها إلى يومنا الحاضر إلا عدد ضئيل من الكتب (نحو 25 كتابًا). وتجدر الإشارة هنا إلى الكلمات التركية التي استخدمها في مؤلفاته، التي تستدعي في الأذهان احتمال أن يكون من أصل تركي.

وكذلك، يأتي يوسف خاص حاجب (ت. 1077م)، صاحب الكتاب الشهير «قوتادغو بيليك» (المعرفة مقدسًا)، ومحمود الكاشغري مؤلف «ديوان لغات الترك»، وأديب أحمد مؤلف كتاب «عتبة الحقائق» الذي يحتوي على نصائح في الأدب والأخلاق والفلسفة، في مقدمة الشخصيات التي أسهمت في الحياة الثقافية في عهد القراخانيين. يبحث «قوتادغو بيليك» الذي يعني علم السعادة في سبل إسعاد الناس، ويتناول ذلك من خلال أربع شخصيات رمزية، فالحاكم الذي يحمل اسم «غونْ ضوغدو» يمثل العدالةَ، والوزير «آيْ ضوغدو» يمثل السعادةَ، وابن الوزير «أُغْدُلمُش» يمثل العقلَ، والزاهد «أودْغورمُش» يمثل القناعةَ. ويؤكد «قوتادغو بيليك»على أن الجهل مرضٌ، وأن كل الشرور تنشأ من الجهل، والجهل مثل المرض يمكن علاجه بالتعليم، وأن الحاكم هو الذي يجب أن يتولى علاجه بالتعليم. ولهذا السبب، يذكر ما يجب على واضع القوانين من مراعاة العدل. ويبين أن العدالة عَمَد السماء، فإن غاب هذا العَمَد وقعت السماء على الأرض. وكذلك كتاب «عتبة الحقائق» يمثل مجلة أخلاقية وأدبية وفلسفية. و«ديوان لغات الترك» ليس مجرد قاموس، بل هو كذلك عمل يتضمن قضايا العلم والحكمة بايجازٍ واقتضابٍ.

2- عصر السلاجقة

بدأ الأتراك منذ البداية، يبنون تدريجيًّا دولًا مستقلة في الساحة السياسية، وبسطوا نفوذهم حتى شبه القارة الهندية والمنطقة الإيرانية العراقية، وبخاصة خلال عصر القراخانيين والغزنويين.

بعد ظهور الدولة السلجوقية، كان العالم الإسلامي على عتبة أزمةٍ كبيرةٍ، وكان التأثير الإسماعيلي الباطني على وشك الانتشار في جميع العالم الإسلامي، من الناحية السياسية والفكرية على حد سواء. إذ كانت الدولة الفاطمية الباطنية الإسماعيلية في غرب العالم الإسلامي (مصر وشمال إفريقيا)، وكذلك الدولة الشيعية الباطنية البويهية التي سيطرت على الخلافة العباسية في بغداد- تسعيان إلى الاستيلاء على العالم الإسلامي. وكانتا أيضًا ترسلان دعاة مسلحين إلى مناطق مختلفة من العالم الإسلامي لنشر الفكر الشيعي الباطني الذي تنتميان

إليه. وكان دعاة الإسماعيلية والباطنية يخلقون جوًّا من الإرهاب في كل مكان، ويبثّون الخوف والرعب من خلال تهديد رجال الدولة والعلماء بالقتل وقطع الطرق. وبعد فترة انضم إليهم حسن الصباح ورجاله الذين اتخذوا من قلعة ألموت في إيران مقرًّا لهم.

بعد الانتصار في معركة دندنقان، قام الحاكم السلجوقي الكبير طغرل بيك بإنقاذ بغداد، مركز الخلافة، من أيدي البويهيين، ثم أطلق بعد ذلك صراعًا كبيرًا ضد العلماء الباطنيين والإسماعيليين. وعمل ألب أرسلان مع وزيره نظام الملك صاحب الفراسة والبصيرة الثاقبة على اتخاذ إجراءات أكثر جذريةً وديمومةً للقضاء على التأثيرات الباطنية، يقينًا منه باستحالة القضاء عليها بقوة السلاح وحدها. من جملة هذه الإجراءات أنه أسس مدارس النظامية التي تطبق برنامجًا تعليميًّا يعتمد بشكل أساسي على آراء الأشعرية السنية. وبذلك ردّ بصورةٍ جذريةٍ التفسيرات المتطرفة التي تهدف إلى تدمير الإسلام من الأساس، فجعل الرأي السُنّي المعتدل الذي يدافع عن «الصراط المستقيم» يهيمن على الدولة والعالم الإسلامي، وافتتح مدارس بنفس الاسم في العديد من المدن الكبرى، مثل: أصفهان والري ونيسابور ومرو وبلخ والبصرة والموصل وآمول. وتخرج في هذه المدارس حشد من العلماء والمفكرين، منهم: أبو المعالي الجويني، وأبو إسحاق الشيرازي، والإمام الغزالي، وعمر الخيام، وجار الله الزمخشري، والخوارزمي، وأبو البركات البغدادي، والإيلاقي، وعمر بن سهلان الساوي، كانوا طلابًا أو أساتذة في هذه المدارس، وأسهموا في الحياة الثقافية لدولة السلاجقة.

بعد وقت قصير من إنشاء المدارس النظامية، حصلت بعض التغيرات الجذرية في الحياة الفكرية في العالم الإسلامي. فالعلاقة بين العقل والنقل والدين والفلسفة والوحي والعلم التي بدأت مع عالم الكلام الشهير الإمام أبي الحسن الأشعري- تطورت على يد الإمام أبو المعالي الجويني، وبلغت نتيجةً مختلفةً على يد تلميذه القيّم الإمام الغزالي. في كتابه «تهافت الفلاسفة»، انتقد الغزالي، بل كفّر، الفلاسفة المسلمين الذين ساروا على خطى أرسطو، مثل الفارابي وابن سينا، في بعض الموضوعات الأساسية في الإلهيات (الميتافيزيقا) التي تشكل واحدة من التخصصات الثلاثة الرئيسة في الفلسفة الأرسطية. لكنه قال: إن تخصصات الفيزياء (الطبيعيات) وبخاصة المنطق، التي يرى فيها أن الفلسفة الأرسطية لا تعنى بالمسائل الدينية، يمكن أن تكون الأساس ليس فقط للعلوم الدينية التي تغلب عليها العقلانية، مثل علم الكلام، بل للتخصصات الإسلامية الأخرى أيضًا، وفي مقدمتها الفقه، وتحدث عن ضرورة هذا الأمر.

3- عصر الإلخانيين

تسبّب الغزو المغولي والحروب الصليبية في حدوث تغييرات كبيرة في كل من العالم الإسلامي ومنظور الحضارة الإسلامية. فالجيوش المغولية التي سارت من المناطق الداخلية من منغوليا سرعان ما سيطرت على خراسان وبلاد ما وراء النهر عابرةً نهر جيحون. وفي عام 1256م أحرق هولاكو خراسان وبلاد ما وراء النهر، وتقدم نحو الغرب وصولًا إلى مشارف الموصل وكركوك من دون أن يلقى مقاومةً تُذكَر.

وفي مطلع عام 1258م شُوهدت الجيوش المغولية على مشارف بغداد. التي حاصرت المدينة من الشرق والغرب، ونصبت المنجنيقات وأخذت تقصف الأسوار. كان القناصة المنغوليون يطلقون السهام من جهةٍ ويشعلون النار في المدينة من جهة أخرى.

وفي الخامس من شهر صفر (10 فبراير 1258م)، دخل المغول بجيوشهم مدينة بغداد، وذبحوا بسيوفهم كل من وجدوهم أمامهم بدون أن يراعوا الصغار والنساء وكبار السن، وحطموا أبواب البيوت وهدموا الجدران، وأخرجوا الناس المختبئين في البيوت وصعدوا بهم إلى الأسطح وألقوهم من هناك على الأرض. وتحولت الممرات المائية في الشوارع إلى ممرات تتدفق دمًا، وتحولت المساجد والتكايا والمدارس إلى حمامات دماء، واختبأ الناس في الآبار والحظائر ومجاري الصرف الصحي من شدة الخوف، ولم يخرجوا ولم يجرؤوا على الخروج لعدة أيام.

وبتعبير المؤرخ وعالم التفسير الشهير ابن كثير: ‘‘وعادت بغداد بعدما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب ليس فيها أحد إلا القليل من الناس، وهم في خوف وجوع وذلة وقلة. ولما انقضى أمد الأمر المقدور، وانقضت الأربعون يومًا بقيت بغداد خاوية على عروشها، ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، والقتلى في الطرقات كأنها التلول، وقد سقط عليهم المطر، فتغيرت صورهم، وأنتنت البلد من جيفهم، وتغير الهواء، فحصل بسببه الوباء الشديد، حتى تعدّى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام، فمات خلق كثير من تغيّر الجو وفساد الريح، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون. ولما نودي ببغداد بالأمان خرج من كان تحت الأرض بالمطامير والقني والمغاير كأنهم الموتى إذا نُبِشوا من قبورهم، وقد أنكر بعضهم بعضًا، فلا يعرف الوالد ولده، ولا الأخ أخاه، وقُتل ثمانمئة ألف، إنا لله وإنا إليه راجعون’’.[6]

---

[6] **البداية والنهاية** لابن كثير، 13/202-204.

بعد وفاة أباقا عام 1282، خلفه في الحكم أخوه تكودار الذي أسلم واتخذ اسم أحمد. لكن بعد عامين، جرى خلعه من العرش وقتله على يد أرغون، الابن الأكبر لأباقا. وبعد وفاة أرغون عام 1291م، جلس أخوه كيخاتو على عرش المغول. بعد أربع سنوات، في عام 1295م، قُتِل كيخاتو وأخذ بايدو مكانه. ولكن بعد وقت قصير، قُتل بايدو أيضًا، واعتلى العرش في العام ذاته غازان حفيد هولاكو الأكبر. وبعد أيام قليلة من اعتلائه العرش، ترك غازان خان البوذية واعتنق الإسلام مع مئة ألف من جنوده، واتخذ لنفسه اسم محمود، وأعلن الإسلام دينًا رسميًّا للبلاد.

وبعد وفاة غازان خان (1304م)، خلفه في الحكم أخوه محمد أولجايتو. وبنى محمد أولجايتو عاصمة لنفسه في السهل الشاسع بين قزوين وزنجان، وأطلق عليها اسم «سلطانية».

شمر الإلخانيون عن سواعدهم لإعمار الدمار الكبير الذي أحدثه جدهم جنكيز، فأخذوا يحولون سلطانية والمناطق المحيطة بها إلى مراكز للفكر والعلم، وشيدوا المدارس والتكايا والخانقاهات في مدن جنوب أذربيجان، مثل سلطانية وأبهر وقزوين وزنجان وتبريز.

عمل الإلخانيون على نشر نهج ابن سينا الأرسطوي في المحيط السنّي، وهو النهج الذي فسّره الغزالي وجعله فخر الدين الرازي (ت. 1209م) نظامًا، وعملوا على نشر نهج ابن سينا الأرسطوي الذي أسسه نصير الدين الطوسي (ت. 1274) في المحيط الشيعي.

وهكذا نشروا الفلسفة المشائية الأفلاطونية الحديثة التي تتكون من خليط من الفكر الأفلاطوني والأرسطوي، في كل مجال من مجالات العلوم الدينية الإسلامية على وجه التقريب. والقسم الأعظم من علماء الكلام المتأخرون الذين ساروا على خطاهم جعلوا الموضوعات الأساسية لهذا التركيب المكون من خليط الفلسفتين الأفلاطونية والأرسطوية مباحث أساسية في علم الكلام.

وقد ألف أثير الدين المفضل بن عمر الأبهري (ت. 1264م) عالم المنطق الشهير وأحد تلاميذ فخر الدين الرازي، كتابًا في المنطق بعنوان ''إيساغوجي'' قُرِّر تدريسه في المدارس حتى آخر أيام الدولة العثمانية، وكتاب آخر بعنوان ''هداية الحكمة'' وهو بمثابة كُتيّب موجز طبق فيه بمهارةٍ تركيب فخر الدين الرازي. وقد بقي هذان الكتابان نموذجًا في العلوم الفكرية من قبل العلماء المسلمين الذي جاؤوا من بعده. شرح كتابَ «هداية الحكمة» ميرك شمس الدين محمد بن مباركشاه البخاري (ت. 1373]؟[م)، وحسين بن معين الدين الميبودي

أو الميبدي (ت. 1470م)، ومحمد مصلح الدين اللاري (ت. 1571م)، وكتب عليه حاشية ميرزاجان حبيب الله الدهلوي (ت. 1585م).

ونسخة النموذج ذاته التي أتى بها نصير الدين الطوسي التي يغلب عليها الفكر الشيعي، نقلها الإلخانيون إلى العالم الإسلامي برمته، وحظيت آراؤه العلمية والفلسفية باحترام كبير في العالمين السني والشيعي. وأخذ كتابه «تجريد العقائد في الكلام» مكانه بين الكتب المدرسية الإلزامية في المدارس التي أسسها السلطان محمد الفاتح. وقد تصدى عدد كبير من العلماء لشرحه، مثل شمس الدين محمد بن محمود الأصفهاني (ت. 1349م) الذي كتب شرحًا لأعمال عالم الكلام السني الشهير القاضي البيضاوي، وعلي قوشجي (ت. 1475م) الذي جاء إلى إسطنبول بدعوة من السلطان الفاتح. وأخيرًا كتب له حاشيةً كل من سيد شريف الجرجاني (ت. 1413م) وعيسى بن محمد الصفوي الإيجي (ت. 1546م).

في الفترة ذاتها، كتب كبار العلماء من أمثال قطب الدين الرازي (ت. 1366م)، وميرك شمس الدين محمد بن مباركشاه البخاري (ت. 1373]؟[)، ومحمد بن موسى الطالشي (ت. 1482م)، شروحًا لكتاب «حكمة العين» بقلم نجم الدين أبي بكر علي بن عمر الكاتبي القزويني. وألّف عليها بعض العلماء حواشي، مثل: السيد الشريف الجورجاني ميرزاجان حبيب الله الدهلوي، ومحمد بن أحمد الطرسوسي (ت. 1732م).

والقاضي عبد الله بن عمر البيضاوي صاحب التفسير الشهير الذي حظي بشروح كثيرة، وتم تدريسه في المدارس لقرون عدة- هو واحد من العلماء الذين ساروا على خطى فخر الدين الرازي، وتبنوا نهج ابن سينا الأرسطوي الذي بتنقيح الغزالي. وكذلك، «طوالع الأنوار من مطالع الأنظار» كتاب آخر للبيضاوي تلقى العناية والشرح من قبل عدد كبير من رجال العلم، ولم يكن يفارق طلاب المدارس في العالم السني. ومن الشروح الكثيرة لهذا الكتاب؛ شرح برهان الدين عبيد الله الفرغاني التبريزي العبري (ت. 1342م) ومحمد بن عبد الرحمن الأصفهاني (ت. 1349)، وعليه كذلك حواشٍ كثيرة، ألّفها علماء أفاضل منهم: السيد الشريف الجرجاني، وعلاء الدين علي بن حسين بن علي جلبي الأماسي (ت. 1470م)، وصَجَقلي زاده محمد بن أبو بكر المرعشي (ت. 1737م). وقد بقي هذا الكتاب مقرّرًا مدرسيًّا يُدرَّس في المدارس حتى أواخر عهد الدولة العثمانية.

استمر هذا النموذج في القرون التالية، على يد عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار عضد الدين الإيجي (ت. 1355م)، وسعد الدين بن مسعود بن عمر التفتازاني (ت. 1389م)، والسيد الشريف الجرجاني (ت. 1413م)، وجلال الدين الدواني (ت. 1502م)، وانتقل بذلك إلى العالم العثماني.

من ناحيةٍ أخرى، تطور فهم التصوف السني في خط الغزالي بسرعة في العصر السلجوقي، وتحول إلى نمط حياةٍ مفعمةٍ بالثراء الداخلي، وانتشر في الأناضول على وجه الخصوص، على يد مفكرين ونوابغ من أمثال فريد الدين العطار (ت. 1233م)، وعمر السهروردي (ت. 1235م)، وسعدي الشيرازي (ت. 1291م)، ومولانا جلال الدين الرومي (ت. 1273م)، ونجم الدين الكبرى (ت. 1221م)، ويونس أمره (ت. 1320م تقريبًا)، وحجي بكتاش ولي (ت. 1337م).

تطورت فكرة وحدة الوجود بفلسفة الحكمة الإلهية (الثيوصوفية) على يد أقطاب التصوف من أمثال شهاب الدين السهروردي (ت. 1191م)، ومحيي الدين بن عربي (ت. 1240م)، وصدر الدين القونوي (ت. 1272م)، وعز الدين النسفي (ت. 1300م)، ومحمود الشبستري (ت. 1320م)، ولقيت اهتمامًا بالغًا.

4- عصر المماليك:

منح الخليفة العباسي المعتز الأراضي المصرية لبايك بيك بالإقطاع. فقام بايك بيك بإرسال ابن زوجته أحمد بن طولون واليًا إلى مصر نيابة عنه في عام 868م. وبذلك بدأ عهد الدولة الطولونية في مصر. ثم جاء بعد الدولة الطولونية محمد بن طغج الذي حاز على لقب «الإخشيد» من قبل الخليفة العباسي، وحكم هو وأبناؤه مصر باسم الدولة الإخشيدية. وبذلك، بدأ دور العبيد النشط بدءًا من القرن التاسع الميلاديّ.

لكن تحوّل المماليك إلى قوة فاعلة في السلطة تأخّر حتى عهد الحاكم الأيوبي الذي اشتهر باسم الملك الصالح. فقد دخل الملك الصالح في صراع على السلطة مع أخيه الملك العادل الذي كانت له علاقات وثيقة مع الصليبيين، وبخاصة مع الإمبراطور فردريك الثاني. وبينما كان الجنود الأكراد في الجيش الأيوبي والباقون إلى جانب أخيه في هذا الصراع، كان العبيد الأتراك (المماليك) إلى جانبه. وبعد اعتلائه العرش أنشأ هذا الحاكم جيشًا قويًا عن طريق استمالة كثير من الجنود الأتراك الذين فروا من الأراضي التي اجتاحها المغول إلى بلاده، وبنى لهم ثكنة تُسمَّى بحر النيل في جزيرة الروضة على نهر النيل بالقاهرة. ولهذا السبب أطلق عليهم: «مماليك البحرية».

وعندما استولت جيوش سانت لويس الصليبية على دمياط وبدأت في التوجه نحو القاهرة، توفي الملك الصالح. وأظهرت زوجته شجرة الدر مهارة كبيرة في إدارة الحكم، حيث أخفت وفاة زوجها، حتى تأكدت من وصول طوران شاه وريث العرش، إلى القاهرة من ديار بكر. لكن الجيوش الصليبية كانت على مشارف القاهرة. وتمكن القائد العظيم بيبرص من هزيمة الصليبيين، وأسر الإمبراطور. فاكتسب بيبرص شهرة كبيرة، وذاع صبته في العالم الإسلامي، ولم يتمكن سانت لويس من العودة إلى بلاده بأمان إلا بدفع خمسمئة ألف ذهبية فرنسية، وتسليم دمياط.

وسرعان ما استولى بيبرص على السلطة، وأعلن سلطنته في 12 نوفمبر 1259م. وبذلك بدأت الدولة المملوكية في مصر، واستمرت 258 عامًا، حتى دخلها السلطان ياووز سليم وضمها إلى الدولة العثمانية.

تزامن نبأ خروج هولاكو من أذربيجان بعد تدمير بغداد مع إعلان بيبرص سلطنته في مصر. وتقدم قائد الجيش المغولي قورت بوغا النسطوري إلى حلب عبر نصيبين وأورفة، وحاصرها في 18 يناير 1260م. استسلمت المدينة بعد ستة أيام وتعرضت للنهب والتدمير. ثم تتابعت المدن السورية بالسقوط في أيدي المغول واحدة تلو أخرى. وبعد وفاة منغو خان الكبير، ترك هولاكو قيادة قواته لقورت بوغا وعاد إلى آسيا الوسطى. وأراد قوت بوغا، وبشيء من تحريك إخوانه في الدين، التقدم إلى مصر، ومنها إلى شمال إفريقيا، ووضع حدٍّ للسيادة الإسلامية فيها. وحملته هذه الآمال إلى معركة عين جالوت بالقرب من نابلس في 3 سبتمبر 1260م، لكنه تعرض لهزيمة منكرة لم يُهزَم قبلها أبدًا أمام بيبرص، وقُتِل قورت بوغا.

من ناحية أخرى، تسبب استيلاء المغول على بغداد وقتل الخليفة بحزن شديد بين المسلمين، وبقي العالم الإسلامي بلا رأس، ويفتقر إلى السلطة المعنوية، وانعكس ذلك بمزيد من البلاء. في هذا السياق أقدم بيبرص على خطوة مهمّة تشرح صدور المسلمين، فاستقدم ولي عهد الخليفة العباسي الذي تمكن من الفرار من مذابح المغول في بغداد، وبايعه على الخلافة باسم المستنصر عام 1261م، وأرسل إلى أمراء الولايات، فتُلِيت الخطبة باسمه، وضُرِبت النقود باسمه.

عمل المماليك في فترة حكمهم على تطوير بيئة علمية وثقافية فريدة في مصر. وعملوا على إحياء منهج فخر الدين الرازي ونصير الدين الطوسي على وجه الخصوص. وفي هذا السياق، عمل العلماء من أمثال قطب الدين

الرازي وقطب الدين الشيرازي وشمس الدين الأصفهاني ومحمد بن مبارك شاه البخاري، على تطوير نموذج يجمع بين المنطق والفلسفة والكلام والتصوف في دروسهم ومحاضراتهم في مدارس عاصمة المماليك القاهرة. وهذا النموذج الذي أحدث حيوية نسبية رغم أنه لم يأت بتوسع جديد في العلوم والفكر الإسلامي، أصبح النموذج الأساسي للفكر العثماني في فترة التأسيس واستمر منذ ذلك الحين.

ومن العلماء الكثيرين الذين نشؤوا في هذه الفترة: أكمل الدين البابيورتي (البابرتي) ومحمد بن المباركشاه البخاري، اللذان تركا بصماتهما على تلك الفترة، سواء من خلال مصنفاتهما وكتبهما أم من خلال الطلاب الماهرين الذين نشؤوا على أيديهما، وكان من نتيجة ذلك أنهم حملوا نفَسًا جديدًا إلى الأناضول وروملي وإيران وما وراء النهر. إذ تلقى عدد كبير من الطلاب دروسهم على يدي هذين العالمين التركيين الكبيرين، وتابعوا نشاطاتهم العلمية في المدارس التي بناها المماليك، وعندما عادوا إلى بلدانهم تابعوا نشاطهم العلمي والثقافي بالتزامهم المسار العلمي الذي تلقوه في مدارس القاهرة، ونشروا هذا المنهج في محيطهم.

وهكذا عاد الشاعر المشهور تاج الدين أحمدي (ت. 1413م) والطبيب حاجي باشا (ت. 1417م) والشيخ بدر الدين ابن قاضي سيماونة (ت. 1420م) وغياث الدين جمشيد (ت. بعد 1424م) والملا فناري (ت. 1430م) من الطلاب الذين تلقّوا علومهم من هذين العالمين التركيين الكبيرين، إلى ديار الروم، وأسّسوا بيئة جديدة للعلوم والفكر في الأناضول.

وجاء الرد الأكبر الأول على هذا النموذج على يد ابن تيمية، ولفت المؤرخ الشهير ابن خلدون الانتباه إلى مخاطر هذا النموذج؛ لأن الفلسفة الأرسطية، من خلال هذا النموذج، اكتسبت مضمونًا دينيًّا، واستقرت في قلب الحياة الفكرية الإسلامية، وأصبحت محمية تمامًا من إمكانية توجيه النقد إليها.

وكما هو معروف، فقد اجتذب الفكر الأرسطي الناس على مدى قرون بمادته الغنية، ونسيجه المحبوك بعناية، وبنيته المتحجرة، بطريقة لم تتوفر لأي فكر آخر. وبينما مهّد هذا الفكر الطريق لاستمرار العلم والفلسفة وانتشارهما من جهة، شكلت سدًّا لقنوات المعرفة والفكر الإبداعي المطلوب لتقدم البشرية وتطورها، وجعلت الفكر والعلوم أسيرة لحدود صارمة من جهة أخرى.

5- العصر التيموري:

تحققت واحدة من الإنجازات الثقافية والفكرية العظيمة في العالم التركي على يد تيمور وأحفاده في القرن الخامس عشر. ورغم أن بابورشاه أحد أحفاد تيمور، حمل هذه المبادرة العظيمة، المعروفة عمومًا باسم «النهضة التيمورية»، إلى شبه القارة الهندية التاريخية، وأدّت إلى ظهور أعمال فنّيّة رائعة ولافتة للنظر هناك، فإنه لم يتمكن من تحقيق اختراق جديد في مجال الفكر.

ولد الأمير تيمور عام 1336م في مدينة كيش (شهرسبز)، على بعد 50 كم من سمرقند، إحدى المدن المهمّة في ما وراء النهر. ودخل التاريخ بلقب أَقْصَك تيمور (تيمورلنك) لأن ساقه اليمنى كانت عرجاء وذراعه اليمنى شلّاء بسبب الجروح التي أُصِيب بها في شبابه.

تفرّغ والده محمد طراقاي في نهاية حياته للتصوف، وانتسب إلى أحد فروع الطريقة اليَسَوية التي أسّسها الشيخ أحمد يَسَوي. ولهذا السبب، أبدى تيمور احترامًا كبيرًا للشيخ أحمد يَسَوي، ولمن سار على طريقه طوال حياته.

اختار تيمور الذي هيمن على منطقة ما وراء النهر في سن الثامنة عشرة، سمرقند عاصمة له. وعندما بلغ الخامسة والثلاثين من عمره، كان قد أسس إمبراطورية عظيمة تمتد من البحر الأبيض المتوسط إلى الصين، ومن روسيا إلى الهند.

كان تيمور يتمتع بشخصية مزدوجة. ففي الحروب كان قاسيًا لا يرحم، ولا يتردد في اتباع أكثر الأساليب عنفًا وقسوة، يرتكب المجازر ويدمّر المدن ويحرقها ولا يتردد في دفن الناس أحياءً. بالمقابل، كان تيمورلنك الصارم القاسي الذي لا يرحم يتمتع بشخصية متواضعة وأخلاق عالية وأدب رفيع واحترام يتجاوز الحدود أمام العلماء وأهل التصوف. وبينما كان هذا الرجل الشديد يحمل كنوز البلدان التي يدمرها إلى عاصمته من جانب، كان يستمتع باستضافة العلماء الأعلام من جميع البلدان، ويبالغ في إكرامهم وتقديم الهدايا لهم. وبذلك، تمكن من تحويل عاصمته سمرقند إلى مركز ثقافي للعلم والفكر في وقت قصير.

التقى تيمور بابن خلدون في أثناء حصار دمشق، وأثنى عليه كثيرًا، وتحدّث معه في التاريخ والجغرافيا، وتلقى معلومات عن مدن شمال إفريقيا، وفي مقدمتها المغرب وطنجة وسبتة، وأمره بإعداد ملفّ خاصّ عنها. وعندما دخل

ابن خلدون خيمة تيمور، قبّل يد تيمور، فأجلسه بجانبه، وقدّم له طعام الأريشتة التي أعدّها خصيصًا له.

عندما استولى تيمور على شيراز، حمل معه سعد الدين التفتازاني والسيد الشريف الجرجاني إلى سمرقند. وبينما كان التفتازاني والجرجاني مع الحاكم المظفري الشهير شاه شجاع في شيراز، استولى تيمور على هذا المكان، وأخذ معه هذين العالمين الكبيرين من خراسان ومنطقة ما وراء النهر، ومكّنهما من القيام بالبحوث العلمية في سمرقند، وكان يشارك في المناقشات من وقت لآخر بكل سرور. وقد ورد في المصادر أن التفتازاني اختلف مع السيد الشريف في مناظرة جرت بحضور تيمور، وعندما وقف تيمور إلى جانب السيد الشريف، حزن حزنًا شديدًا، ومات بسببه.

وقد أولى السيد الشريف أهمية للتصوف والأفكار الباطنية إلى جانب العلوم العقلية. بالمقابل، عمل التفتازاني على اعتبار ظاهر الشريعة، وحرص على الابتعاد عن الفهم الذي يتعارض معه. وعلى النقيض من التفتازاني الذي عارض محيي الدين بن عربي وكتب الردود على فكرته في وحدة الوجود، اهتم السيد الشريف بهذه الأفكار ودافع عنها. وهذه المناقشات بين هذين العالمين شكلت في الواقع أساس المناقشات حول الطريقة والشريعة في المدارس العثمانية في القرون التالية.

ومن الأسماء المشهورة الأخرى التي التقى بها تيمور في مدينة شيراز شاعر العصر المظفري والأديب الإيراني الكبير حافظ الشيرازي. عندما دخل تيمور شيراز استدعى حافظًا ليمثل أمامه، وقال له: من بين كُلّ مدن إمبراطوريتي فإنَّ «بخارى» و«سمرقند» هما أجمل الجواهر. فما الذي دعاك لتعلن في غزليتك أنك مستعدٌّ لمقايضتهما بخالٍ على خد جميلة هندية؟. ربما لأنه عَدّ ذلك نقيصة، وربما لهذا السبب لم يول احتفاءً كبيرًا بحافظ الشيرازي رغم كونه خبيرًا عميق الفهم في الأدب الفارسي.

والشيخ بدر الدين ابن قاضي سيماونة مفكر مشهور آخر التقى به تيمور. قدم إلى سمرقند من القاهرة بتشجيع من الشيخ الأخلاطي، وقبله تيمور، ومكث فيها بعض الوقت، ثم عاد إلى القاهرة.

تتربع سمرقند على سفوح تلة أفراسياب على مقربة من وادي نهر زَرَفْشان (الذي ينثر الذهب)، وتغذي أراضيها الخصبة فروع النهر آب رحمت، وآب سياه، وآب مشهد، وتحدّها من الشرق فرغانة وكاشغر، ومن الغرب بخارى وخوارزم، ومن الشمال طشقند وشاهروهي، ومن الجنوب بلخ وترمذ. تيمور

المخلص لهذه المدينة التي احترقت ودمِّرت وفقدت سابق مجدها بسبب الحروب، أعاد إعمارها، وبنى المساجد والمدارس وتكايا الدراويش والأضرحة والقصور والطرق والحدائق والمرافق العامة الأخرى.

وممّا يعرض من الفن التيموري أمام الأعين مسجد بيبي خاتون الذي أمر تيمور ببنائه باسم زوجته الأولى سراي مُلْك خانم، عند عودته من حملة الهند، والمدرسة والتكية الكبيرة المبنية حول غور أمير الذي بناه باسم حفيده محمد سلطان ودُفِن فيه بعد موته، وهو ضريح مزخرف بحجر اليشيم الأخضر، والكليات والأضرحة المتجمعة حول قبر قثم بن عباس، المعروف باسم «شاه زنده»، والذي جاء إلى سمرقند في فتحها الأول.

أنشأ تيمور في محيط سمرقند بضع عشرة حديقة، فجعلها جنةً خضراء فريدة من نوعها في عالم ذلك الوقت. وعندما رأى السفير الإسباني كلافيجو حديقة الجنة (Bâğ-ı Behişt) والحديقة الجديدة (Bâğ-ı Nev) والحديقة الساحرة (Bâğ-ı dilküşâ) والحديقة العالية (Bâğ-ı Çınar, Bâğ-ı bülend) والحديقة الشمالية (Bâğ-ı Şimal) ونقش العالم (Nakş-i cihân)، انبهر أمام حب تيمور للخضار في السهوب القاحلة وذوقه في تشييد الحدائق، وذكر أنه لم ير شيئًا مثلها في أوروبا من قبل. وقد انتقل ذوقه الرفيع في إنشاء الحدائق من بلاد ما وراء النهر إلى شبه القارة الهندية على يد بابورشاه، أحد أحفاد تيمور. ومن الأمثلة النموذجية على ذلك حديقة الحب (Şalimar Bağ) في لاهور وحديقة الترفيه (Bâğ-ı Neşât) في سري نكر.

بينما كان تيمور في خيمته يضع خططًا للفتح في أثناء حصاره مدينة ماردين التي كانت حصنًا طبيعيًا، دخل عليه رسول قادم من سلطانية وبشّره بولادة حفيد له من ابنه الرابع، شاه رخ وجوهرشاد خانم، ابنة أحد نبلاء جَغَطاي في عام 1394م. فرح تيمور فرحًا كبيرًا بحفيده هذا، وسمّاه محمدًا تيمّنًا باسم أبيه محمد ترغاي، وفي اليوم التالي أطلق سراح أهل ماردين الذين أسرهم، وأعاد إليهم أموالهم التي صادرها منهم. وهكذا أنقذ ألوغ بيك، عالم المستقبل العظيم، العديد من الناس من كارثة وهو ما يزال حديث الولادة.

ولتوفير تنشئة جيدةٍ للأمير، أُخِذ الطفل من حضن أمّه وتُرِك في يد الزوجة الأولى لفاتح آسيا الكبير، سراي ملك خانم الشهيرة بشخصيتها القوية، عملًا بالعادة المتعارفة عليها في خانية تيمور. جال محمد الصغير مع جدته جميع أنحاء الإمبراطورية، وذهب إلى الهند، ثم كابل عندما كان في الثالثة من عمره.

لكن تيمور الذي أحب حفيده حبًّا جمًّا أمر بإرساله فورًا إلى سمرقند خشية أن يتأثر بالظروف المناخية.

كان ميرزا الصغير يدخل خيمة جده باستمرارٍ، ويشاهد الاجتماعات العسكرية التي تعقد بحضوره، ويستمع إلى مجلس العلم. فأدرك تيمور أن حفيده يتمتع بذكاء قوي وذاكرة قوية، فحرص على حفظه القرآن الكريم وتعلّمه القراءات السبع في سن مبكّرة، وتلقي الدروس على يد كبار علماء البلاد من أجل أن يكون على إحاطة تامة بالمسائل الدينية والعلمية.

تلمذ ميرزا محمد لقاضي زادة الرومي، أحد أبرز طلاب الملا فناري، أحد تلاميذ السيد الشريف الجرجاني، والراجح أنهما تعارفا في مجلس جده، وتلقى منه دروسًا في الرياضيات والفلك.

عندما بلغ التاسعة من عمره، ذهب ميرزا محمد إلى قرة باغ، حيث كان يعسكر جده، ومن هناك ذهب إلى مراغة، وزار المرصد الشهير، ثم توجه إلى أرضروم. ثم عاد ميرزا محمد الذي رافق جده تيمور في رحلته الأخيرة التي خططها لفتح الصين، إلى سمرقند بعد وفاة هذا المحارب العظيم في فاراب.

اتخذ شاه رخ الذي اعتلى العرش بعد وفاة والده تيمور مدينة هرات عاصمة له، حيث استقر فيها منذ أن كان حاكمًا عليها وأبوه على قيد الحياة، وترك إدارة سمرقند لابنه ميرزا محمد ترغاي. وبقي الأمير الديناميكي الشاب الذي سُمِّي فيما بعد باسم ألوغ بيك في سمرقند الخالدة التي عمّرها جده، وجعلها قرة عين العالم، ولم يفارقها أبدًا. وقصر حياته على إعمار سمرقند وتطويرها على الوجه الذي أراده جده؛ لتكون مدينة العلم والثقافة والفن.

تابع ألوغ بيك مسيرة جده الأمير تيمور ووالده شاه رخ، وأبدى اهتمامًا بالعلماء والمثقفين والفنانين. وصار مع أخيه بايسُنْقُر رائدًا في إنتاج أعمالٍ باهرةٍ في كل فرع من فروع الفنون الجميلة، من الشعر إلى الموسيقى، ومن المنمنمات إلى الزخرفة، ومن الخط إلى التجليد والزخرفة، في سمرقند وهرات وشيراز. يذكر دولت شاه في مذكراته أن ألوغ بيك كان معجبًا جدًّا بأعمال النظامي، وأن بايسُنْقُر كان معجبًا جدًّا بـ«همسة» لأمير خسرو دهلوي، وأن هذين الأميرين صاحبي الذوق الرفيع كانا يقارنان أشعار الشاعرين سطرًا سطرًا.

بنى ألوغ بيك الذي سار على خطى جده قصرًا مكونًا من أربعين عمودًا في حديقة الميدان «Bâğ-ı Meydan» في سمرقند. والمدرسة والمسجد والخانقاه الذي يحمل اسمه في ساحة ريغستان يتمتع بجمالٍ يضاهي جمال ما بناه تيمور. وفي القرن السابع عشر، أضيفت إلى هذه المدرسة مدرستا شيردار وتيلاكاري.

ما من شكٍّ أن أعظم أعماله التي خلدت اسمه هو المرصد الشهير الذي بناه في المنطقة المعروفة باسم «Bâğ-ı Meydan» على شكلٍ دائريّ قطره 48 مترًا، مكونًا من ثلاثة طوابق، وبذل الغالي والرخيص في سبيل تطويره. تولى أستاذه قاضي زادة الرومي إدارة هذا المرصد، وخلفه غياث الدين جشميد، ثم علي قوشجي بعد وفاة غياث الدين جشميد، وتمكن من إعداد الجدول الفلكي الشهير المعروف باسم ''الزيج السلطاني'' أو ''الرصد الجديد السلطاني''.

وفي سياق الزيج يقدم كاتب جلبي المعلومات الآتية: ''محمد بن شاه رخ اعتذر فيه من تكفل مصالح الأمم، فتوزع باله وقل انشغاله، ومع هذا حصر الهمة على إحراز قصبات الكمال واستجماع مآثر الفضل والأفضال، وقصر السعي إلى جانب تحصيل الحقائق العلمية والدقائق الحكيمة والنظر في الأجرام السماوية، فصار له التوفيق الإلهي رفيقًا، فانتقشت على فكره غوامض العلوم، فاختار رصد الكواكب.

فساعده في ذلك أستاذه صلاح الدين موسى المشتهر بقاضي زاده الرومي وغياث الدين جشميد، فاتفق وفاة جشميد حين الشروع فيه، وتوفي قاضي زاده أيضًا قبل تمامه، فكمل ذلك باهتمام ولد غياث الدين المولى علي بن محمد القوشجي الذي حصّل في حداثة سنه غالب العلوم، فما حقق رصده من الكواكب المنيرة أثبته ألوغ بيك في كتابه هذا، وجعله على أربع مقالات: الأولى في معرفة التواريخ وهي على مقدمة وخمسة أبواب، والثانية في معرفة الأوقات والطالع في كل وقت، وهي اثنان وعشرون بابًا، والثالثة في معرفة سير الكواكب ومواضعها، وهي ثلاثة عشر بابًا، والرابعة في موافي الأعمال النجومية، وهي على بابين، وهو أحسن الزيجات وأقربها إلى الصحة. شرحه المولى محمود بن محمد المشتهر بميرم بالفارسية في رجب سنة أربع وتسع مئة، أوله تبارك الذي له ملك السموات والأرض إلخ، وأهداه إلى السلطان بايزيد، وسماه دستور العمل في تصحيح الجدول. وشرحه أيضًا مولانا علي قوشجي''.[7]

يذكر غياث الدين جمشيد الكاشي، أن ألوغ بيك كان يحيط به في سمرقند في تلك الأيام قرابة (60–70) عالمًا، يعملون في مجال الفلك والرياضيات.[8]

توفي شاه رخ عام 1447، فاعتلى ألوغ بيك العرش بصفته الوريث الوحيد للإمبراطورية الشاسعة. لكنه لم يتمكن من التدخل بشكل كافٍ في الصراعات

---

[7] **كشف الظنون** لكاتب جلبي، 966/2.

[8] Saydı, Uluğ Bey ve Semerkand'daki İlim Faaliyeti Hakkında Ğıyâsüddîn-i Kâşî'nin Mektubu, s. 68.

على العرش بين أبناء أخيه وأبنائه، والغريب أن خلافًا وقع بينه وبين ابنه عبد اللطيف. ونشبت حربٌ بين الأب وابنه في منطقة قريبة من سمرقند. واستسلم هذا الحكيم العظيم لابنه وجاء إلى سمرقند، فاغتيل بطريقة وحشية على يد رجل يُدعَى عباس، كان قد استأجره ابنه، في 27 أكتوبر 1449. وبعد ستة أشهر قُتِل عبد اللطيف.

مع وفاة ألوغ بيك، انتهت ووّلت أيام المجد والازدهار التي كانت تشهدها سمرقند، واستمر عصر النهضة التيمورية في الازدهار في شبه القارة الهندية. وقام بابور وأحفاده بإثراء العجائب الهندسية الهندية بالأعمال الفنية، لكن النجاحات التي جرى إحرازها في مجال الإدارة والفن لم يجر إحرازها في مجال العلم والفكر.

6- عصر العثمانيين:

عملت الدولة العثمانية على الحفاظ على أجواء العلم والفكر التي كانت موجودةً في عصر السلاجقة والإلخانيين والمماليك وإثرائها. وكان العلماء البارزون في فترة تأسيس الدولة العثمانية يميلون إلى تيار الفقه والتصوف الذي يعمل على تطبيق أيديولوجيا التأسيس، بدلًا من أن يكونوا علماء متعمّقين. لهذا السبب، كان الفقه والتصوف دائمًا في المقدمة طيلة فترة الدولة العثمانية. ومن بين العلماء الأحد عشر الذين نشؤوا في هذه الفترة، علماء الفقه، مثل: تاج الدين الكردي وعلاء الدين الأسود والمعروف أيضًا باسم قره خوجه وجاندرلي قره خليل، وعلماء الأدب والبلاغة مثل عبد الحسين القيصري، وعلماء عارفون من مذهب ابن عربي من أمثال داود القيصري (ت. 1350م) الذي كان قاضي أورخان بيك في إزنيق. بالمثل كان القاضي محمود المعروف بقوجه أفندي وجمال الدين بن محمد بن فخر الدين الرازي عالمينِ في الفقه والحديث.

بدأ ظهور العلماء متعددي التخصصات في الأراضي العثمانية أيام بايزيد الثاني. ففي هذه الفترة (1389–1402م) نشأ علماء ومفكرون بارزون جدًّا، مثل الإمام الصغاني الذي اشتهر بكتابه ''منار الأنوار في أصول الفقه''، وعز الدين عبد اللطيف بن الملك الذي اشتهر بشرحه «مشارق الأنوار'' الشهير في علم الحديث، وتاج الدين أحمدي (ت. 1413م)، وحجي خوجه القونوي أو الأيدني (ت. 1417م)، وابن قاضي سيماونة شيخ بدر الدين (ت. 1420م)، والملا فناري (ت. 1430م).

إلى جانب هؤلاء، كان هناك علماء يتولون التدريس في المدارس العثمانية، وينيرون المجتمع بمؤلفاتهم وأفكارهم، مثل: محمد بن محمد الكردري،

والشيخ شهاب الدين السيواسي، وحسن باشا بن علاء الدين الأسود، وشرف شاه، ومحمد شاه ويوسف بالي ابني الملا فناري، وقطب الدين الإزنيقي، وبهاء الدين عمر بن قطب الدين الحنفي، وإبراهيم بن محمد الحنفي، ونجم الدين الحنفي، والشيخ يار علي الشيرازي، ومحمد بن محمد بن يوسف الجزري، وأبنائه محمد الأكبر ومحمد الأصغر وأحمد، وعبد الواجد بن محمد، وعبد الرحمن بن محمد، وعلاء الدين الرومي، وفخر الدين الرومي، والشيخ رمضان، وأحمد بن محمد بن عربشاه.

وواضح أن البيئة السلبية التي جلبها عهد الفترة وبقاء العرش العثماني بلا سلطان، حملا معهما ركودًا كبيرًا في التطور العلمي أيضًا. وقد انضم في عهد السلطان محمد جلبي (1402–1421م) ، إلى قافلة العلماء والمفكرين أعلام من أمثال: فخر الدين العجمي، وحيدر الهروي، وصاري يعقوب القرماني، وقره يعقوب بن إدريس، ومحمد بن مسعود الرومي.

وبدأ الانتعاش يعود في عهد مراد الثاني (1421–1451م) ، حيث عمل العلماء على نشر العلم والحكمة، على غرار: محمد بن أرمغان بن خليل، ويوسف بالي بن ملا يغان، ومحمد بن بشير، وشرف الدين بن كمال القِريمي، وسيد بن عبد الله القِريمي، وسيد علاء الدين علي السمرقندي، ومولانا (ملا) أحمد بن إسماعيل الكوراني، وخضر بيك بن جلال الدين، ومولانا شكر الله، ومولانا تاج الدين بن إبراهيم، وعلاء الدين علي الطوسي، والسيد علي العجمي، وحسام الدين التوقادي، وإلياس بن إبراهيم، ومحمد بن قاضي منياس، ومحمد بن قطب الدين الإزنيقي، وفتح الله الشيرواني.[9]

يُلاحَظ أن غالبية هؤلاء الأعلام المذكورين في «الشقائق النعمانية» لطاش كوبري زاده كانوا متخصصين في مختلف مجالات العلوم الدينية، وكانوا يتولون تدريس الطلاب في المدارس. والملاحظ في متصوفة هذه الفترة، أنهم اشتهروا بممارساتهم العملية أكثر من اشتهارهم بنشاطاتهم الفكرية.

وعندما قرر فاتح القسطنطينية العظيم «أبو الغزاة السلطان محمد خان» أن يفتح عاصمة بيزنطة، ويجعلها عاصمة لإمبراطورية عالمية عظيمة، أراد أن يجهزها أولًا بكنوز العلم والثقافة، فبنى في محيط المسجد الذي اشتهر باسمه مدارس صحن الثمان الشهيرة. وبينما عمل على تشييد عاصمته بالأعمال المعمارية التي كانت تشكل صروح العلم والعرفان، أراد من ناحيةٍ أخرى جلب البيئة الثقافية المفعمة بالحيوية من إيران وبلاد ما وراء النهر إلى إسطنبول.

---

[9] **الشقائق النعمانية** لطاش كوبري زادة، ص 17–127.

وفي هذا السياق، دعا قاضي زاده الرومي وعلي قوشجي من العلماء الذين كانوا في مجلس ألوغ بيك إلى بلاده، وأغدق عليهما بالذهب. وبجهود كبار العلماء من أمثال خوجه زاده مصلح الدين مصطفى الشهير بخوجة التركمان (ت. 1488م)، وسنان باشا (ت. 1486م) الذي تتلمذ لحكيم حجي باشا واشتهر بلقب خوجه باشا، وتلميذه الملا لطفي التوقادي (ت. 1494م)، وخضر بيك (ت. 1449م)، وعلاء الدين علي الطوسي (ت. 1455م) والملا خسرو (ت. 1480م)- ازدهر العلم والفكر الإسلامي في القرن الخامس عشر مرةً أخرى بأطياف ونماذج ناجحة يمكن القول إنها تمثل التنوير التركي.

هذا الانتعاش الاستثنائي المتميز الذي حصل في المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية في القرن الخامس عشر وفّر الإمكانية والأرضية لضرب الختم التركي على العصر السادس عشر، واصطباغه في تاريخ العالم بالعصر العثماني. فالأتراك العثمانيون الذين كانوا رواد العالم في جميع مجالات الحياة على وجه التقريب حملوا راية الإسلام حتى وصلوا إلى أبواب فيينا.

في هذا العصر، قدم العلماء النماذج الأخيرة عن الفكر الإسلامي التقليدي، فكان منهم: حكيم شاه القزويني (ت. 1502م)، وجلال الدين الدواني (ت. 1512م)، وعلي جمالي الزنبيلي (ت. 1525م)، ومؤيد زاده عبد الرحمن أفندي (ت. 1516م)، وكمال باشا زاده أحمد شمس الدين (ت. 1533م)، وطاش كوبري زاده أحمد عصام الدين (ت. 1560م)، ومولانا محيي الدين اللاري (ت. 1571م)، وقينالي زاده علي أفندي (ت. 1572م)، ومفتي الأنام أبو السعود أفندي (ت. 1574م)، وميرزاجان حبيب الله الدهلوي (ت. 1585م)، ومحمد أفندي الواني (ت. 1592م)، ويحيى أفندي نوعي (ت. 1599م).

وعلى الرغم من أن رجال العلم ورجالات الدولة العثمانية الذين أمضوا القرن السابع عشر في حادثة مقتل السلطان عثمان الثاني، وانتفاضات مراد الرابع غير المنتظمة، وحماقة إبراهيم المجنون التي تفوق الخيال، وحب محمد الرابع الشديد للصيد، والصراع بين أتباع حركة قاضي زاده والمتصوفين، والتمردات الداخلية والحروب مع النمسا وألمانيا والبندقية وروسيا... نعم، أدرك هؤلاء العلماء أن الدولة أخذت تفقد مجدها السابق تدريجيًّا، وأنهم بصدد أعراض جديدةٍ يجهلونها. وعجزت المدارس التي كانت تشكل المؤسسات التعليمية الرسمية في البلاد عن إيجاد حلول ناجعةٍ؛ لأنها كانت تكرارًا للنماذج التفكيرية، وكانت تفتقر إلى كوادر علميةٍ وفكريةٍ قادرةٍ على تشخيص المرض وإجراء العلاج. والعلماء الذين نشؤوا في هذا القرن، مثل: إسماعيل الأنقراوي (ت.

1632م) وبهاء الدين العاملي (ت. 1621م) وكاتب جلبي (ت. 7165م) وحبري علي أفندي (ت. 1669م) وهزارفن حسين أفندي (ت. 1678م) وأيوب بن موسى الكفوي (ت. 1682م) ونيازي المصري (ت. 1694م) ورودوسي زاده محمد أفندي (ت. 1791م)- لم يكونوا أقوياء بما يكفي لبث الحيوية في الحياة الفكرية.

في أعقاب هزيمة الجيش العثماني في كاهلينبيرغ أمام فيينا (12 سبتمبر 1683م) وسقوط بودابيست في حدود الدولة العثمانية من الغرب بعد ثلاث سنوات، وأخيرًا معاهدة كارلوفجة التي أبرمت في العام الأخير من القرن السابع عشر (2 سبتمبر 1699م)؛ ظهر أن الدولة العثمانية تعاني مرضًا عضالًا اسمه الهزيمة، واضطرت للاعتراف بتفوق خصمها الأبدي «طائفة النصارى». واعتبارًا من هذا التاريخ عمل بيروقراطيو الدولة، وفي مقدمتهم الحكام، على أن تجد الدولة متنفسًا من الحروب المتعاقبة، ولو لزمن قصير، وتوصل العلماء إلى نتيجة مفادها، وجوب البحث عن حلول فكرية للمشكلة. لكن النتيجة لم تتمخض عن مقاربة مختلفة عن القانون القديم، أي العودة إلى الماضي وإحياء الماضي، وبقي حماس البحث في فترة الأزمة ظاهرًا للعيان.

نشأ في هذا العصر أيضًا علماء وشعراء ومفكرون، بشّروا ببحثٍ جديدٍ لم تتبلور معالمه وقواعده الصارمة، مثل: أحمد دادا منجم باشي (ت. 1704م)، شعبان شفائي العياشي (ت. 1704م)، مصطفى أفندي الموستارلي (ت. 1707م)، نوح بن عبد المنان (ت. 1707م)، فايزي خليل أفندي (ت. 1723م)، قره خليل أفندي (ت. 1711م)، يوسف نبي أفندي (ت. 1712م)، مصطفى نعيمة أفندي (ت. 1715م)، خليل فايز أفندي (ت. 1721م)، إسماعيل حقي البورصلي (ت. 1725م)، نديم أحمد أفندي (ت. 1730م)، محمد إسماعيل أفندي اليانْيَلي (ت. 1730م)، يرميسَكيز محمد جلبي (ت. 1732م)، محمد بن أحمد الطرسوسي (ت. 1732م)، صَجَكلي زاده محمد المرعشي (ت. 1732م)، عبد الرحيم باشا المرعشي (ت. 1736م)، رشيد محمد أفندي (ت. 1735م)، سيد وهبي أفندي (ت. 1736م)، مَسْتجي زاده عبد الله أفندي (ت. 1736م)، داود أفندي القارصي (ت. 1747م)، بيري زاده محمد صاحب أفندي (ت. 1749م)، محمد بن مصطفى الأقْكِرماني الكفوي (ت. 1761م)، إبراهيم حقي الأرضرومي (ت. 1780م)، إسماعيل أفندي الكلنبوي (ت. 1790م).

بحلول القرن التاسع عشر، كان المنافس الأوربي يعزّز تفوقه الذي اكتسبه من خلال التكنولوجيا والتحركات الإمبريالية التي قام بتطويرها، ويطمح بإزالة خصمه التاريخي من مسرح الحياة. بالمقابل، كان جميع الجهود التي بذلته الدولة العثمانية للتعافي محكومة بالإخفاق؛ لأنها كانت تفتقر إلى القوة والدراية

التي تنتشلها من انحدارها وترفع راية النهضة والجهاد من جديد. وبدأت بيئة الصدمات والتفوق الغربي تسود، وأصبحت محاولات استيعاب الثقافة المنتصرة ومحاولات التكيف معها وتبنيها- تدفع تدريجيًّا إلى التخلي عن القيم التفكيرية التي تشكل رمق حياتها.

بعد جلوس السلطان عبد الحميد الثاني على عرش الدولة العثمانية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر بدون مشكلات، تمكن من التغلب على جانب كبير من هذه التحديات الثقيلة بمناوراته الماهرة في المجال السياسي، لكنه لم يملك الدعم الفكري الذاتي لوضع حد للانهيار الثقافي والفكري. والمثقفون الذين أرسلهم إلى أوربا لتلقي العلوم، لم يدخروا وسعًا في الانقلاب ضده والعمل على القضاء عليه، أو أصبحوا أدوات في أيدي أعدائه. وبطبيعة الحال، لم تتمكن الدوائر العلمية والفكرية التقليدية من تجديد نفسها، ولم يتمكن الحاكم الخبير من إظهار بصيرته السياسية في المجال الفكري، ولم يتمكن من وضع حد للضعف التدريجي الذي تتعرض له هذه الدولة العالمية العظيمة. ولم تسفر الجهود الجبارة التي بذلها العلماء والمفكرون عن النتائج المرجوة. وكان من هؤلاء الأعلام: شيخ الإسلام عارف حكمت أفندي (ت. 1855م) الذي عمل على فتح أبواب المناهج العلمية على العالم الجديد، وخير الدين باش التونسي (ت. 1889م) الذي بذل جهودًا جبارة في إصلاح الفكر الإسلامي، وعالم الحقوق والتاريخ أحمد جودت باشا (ت. 1895م)، والفيلسوف الذي اشتهر في فترة ما بعد عبد الحميد سعيد حليم باشا (ت. 1921م). والأعلام الذين انضموا إلى عالمنا الفكري في نفس الأيام من أمثال: إبراهيم شيناسي (ت. 1871م)، وعلي سعاوي (ت. 1878م)، وضياء باشا (ت. 1880م)، ومنيف باشا العنتابي (ت. 1894م)- ساروا على نموذج التنظيمات، وعملوا على تطوير فكر عثماني تحت النفوذ الغربي.

في مطالع القرن العشرين بدأت آثار الأفهام المختلفة بالظهور في الوصفات المقدمة لخلاص «الرجل المريض» وتعافي الدولة. فالعلماء من أمثال الشاعر الملحمي ونموذج الشخصية التركية المسلمة وناظم شعر الاستقلال محمد عاكف أرسوي (ت. 1936م) وإسماعيل حقي المناستري (ت. 1911م) الذي تأثر به، ومحمد عاطف الإسكليبي (ت. 1926م)، وأحمد نعيم بابان زاده (ت. 1934م)، وألمالي محمد حمدي يازر (ت. 1942م)، وشيخ الإسلام مصطفى صبري (ت. 1954م) الذي يختلف عنهم إلى حد بعيد- سعَوا جميعًا إلى تقديم حلولٍ تتماشى مع الفكر الإسلامي الإصلاحي، لكن جهودهم أيضًا لم تجد الدعم الكافي.

ثم جاء بعد هؤلاء، إسماعيل حقي الإزميري (ت. 1946م) ومحمد شرف الدين يالطي قايا (ت. 1947م) الذي أصبح في ما بعد رئيسًا للشؤون الدينية وشمس الدين غون ألطاي (ت. 1961م)، وعملوا على تطوير فكر إسلامي تركي ينجرف وراء الحداثة.

من ناحية أخرى، بذل المفكرون الذين نشؤوا في مطالع القرن الماضي في العالم التركي الذي كان يرزح تحت الإمبريالية الروسية لما يزيد عن قرنين من الزمان، من أمثال إسماعيل حقي غسبرالي (ت. 1914م) وأحمد آغا أوغلو (ت. 1930م) ويوسف أقجورا (ت. 1935م) وحسين زادة علي (ت. 1942م)- جهودهم في تطوير الفكر التركي، لكنهم لم يتمكنوا من تطوير طرق فكرية جديدة في مواجهة الضغط الثقيل للإلحاد.

بعد الحرب العالمية الأولى، وبعد حصول تركيا على استقلالها، سرعان ما أخفقت محاولات التغريب الذي عمل الحكم الجديد على نشره، خلال فترة قصيرة، لكنه تسبب بالمقابل، في ذوبان التراث التفكيري بسرعة.

في هذه الفترة، كان بديع الزمان سعيد النورسي (ت. 1960م) الذي وقف بعناد ضد السياسات العلمانية الصارمة وعانى بسبب ذلك الحرمانَ من حريته لفترات طويلة، ونجيب فاضل (ت. 1983م) بقلمه القوي- كانا يخوضان في أيام هذه الثورة المحمومة معركة الفكر الإسلامي المصيرية.

اكتسبت المنشورات والبحوث في مجال الفكر الإسلامي زخمًا كبيرًا، تزامن مع التحول إلى الحياة الديمقراطية والتعددية الحزبية، وما حمل معه من افتتاح مدارس الأئمة والخطباء والمعاهد الإسلامية العليا وكليات الإلهيات (أصول الدين). وفي هذا السياق، قدم قسم تاريخ الفكر الإسلامي التركي الذي استحدث في قسم الفلسفة في كلية الآداب في جامعة إسطنبول، إسهامات كبيرة في نشأة الفكر الإسلامي وتطويره بالمعنى الأكاديمي، إلى جانب البحوث والدراسات التي كانت تجري في كلية الإلهيات وكلية اللغة والتاريخ والجغرافيا في جامعة أنقرة. وكذلك، الجهود العلمية التي بذلها حلمي ضياء أولكن وأيدن صايلي وفؤاد سزكين ومباحات كويَل ونهاد ككليك على وجه الخصوص، كان لها أثر فعال في إعادة العلوم والفكر الإسلامي إلى جدول الأعمال في تركيا.

ونحن بدورنا، عملنا منذ ما يقرب من ثلاثين عامًا، على خلق مفهوم متماسك وشامل للفكر الإسلامي، من خلال، تحديد مكان هذا النظام الفكري في الفكر العالمي، والكشف بشكل ملموس عن آثاره في الفكر الغربي في

العصور الوسطى، وتحديد الرسالة التي يمكن أن يقوم بها الفكر الإسلامي في ضوء تطورات اليوم.

وفي الختام نقف أمام العالم التركي الذي تشابك فيه الفهم الإسلامي المناقبي الذي تطور على يد الشيخ أحمد يَسَوي في سهوب آسيا الوسطى، مع الخيال الواسع في إنتاج سعدي والعطار، وتداخل فيه منهج ابن سبعين الفلسفي الغنوصي مع فلسفة ابن العربي، وتفسير كل ذلك في أسلوب مولانا جلال الدين الرومي وأقواله المفعمة بأسرار الحكمة. وقد تأثر بهذا الفهم الإسلامي أمثال يونس أمره وحجي بيرم ولي وأشرف أوغلو الرومي وإبراهيم حقي الأرضرومي والشيخ غالب، فتحركت به مشاعرهم الصادقة، وفاضت على ألسنتهم حكمةً وأشعارًا وألحانًا، وكان له دور في تشكيل نظرة العالم التركي للإنسانية والحياة والكائنات.

وهذا العالم الكبير الممتد من البحر الأبيض المتوسط إلى سور الصين العظيم، بما يحمله من معاناة جهله بماضيه، وقلقه من فقدان قدرته على رؤية مستقبله؛ واجه التحديات الصعبة التي اعترضت طريق محاولاته للحاق بركب الإنسانية في المجالات الثقافية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية.

فتركيا التي قضت القرون الثلاثة الأخيرة في الهزائم والانكسارات والدمار والآلام والاكتئابات، والتي عانت كذلك خيبات أمل كبيرة في نضالها من أجل المعاصرة والتحديث منذ عهد التنظيمات، وتركيا التي أدارت ظهرها للشرق ووجهها للغرب في ظل الجمهورية التي أسستها بعد صراع طويل دامٍ من أجل الاستقلال- عملت على الاندماج في العالم المعاصر من خلال تمسكها بالحياة الديمقراطية المتعددة الأحزاب منذ خمسينيات القرن الماضي.

ومنذ العقد الأخير على وجه الخصوص، بدأت تركيا تأخذ مكانها في المجتمع الدولي، من خلال حماية تراثها التاريخي، والتصالح مع ماضيها، والتوفيق بين الإسلام والديمقراطية، والإلحاح على المضي قدمًا في تطوير بنيتها الاقتصادية، حتى باتت محط آمال العالم الإسلامي والعالم التركي والدول النامية على حد سواء.

الخاتمة

في ليلة السابع والعشرين من رمضان سنة 016 م، كان النبي محمد في غار حراء من جبل النور معتزلا قومه. فجاءه الملك جبريل (عليه السلام) وأنزل عليه أولى آيات القرآن وحيًا: "اقرأ". وبهذا النور الإلهي الذي سطع من غار حراء إلى الكون، قام شباب الصحراء البدو الضعفاء، الذين لم يكن لهم أي مساهمة

تقريبًا في الحضارة العالمية حتى ذلك الحين، بواحدة من أعظم الانطلاقات في التاريخ.

وفي فترة قصيرة مدتها 32 عامًا، بدأت رسالة الإسلام تتجاوز حدود الصحاري العربية لتصل إلى حدود العالم في ذلك الوقت، وذلك بديناميكية جديدة تغذيها عقيدة التوحيد الخالصة.

وبعد حوالي عشر سنوات من وفاة النبي ، ظهر المسلمون أمام أبواب بلاد الشام، عاصمة الولاية السورية لبيزنطة؛ وفتحوا المدينة في وقت قصير وأنشأوا نظاما جديدًا من أنظمة الحكم. لقد قدموا أحد النماذج المثالية للتعايش السلمي، دون التدخل في لغة الشعب ودينه وعاداته وتقاليده.

ومع الفتوحات التي تمت في عهد الخلفاء الأربعة الأوائل (الخلفاء الراشدين)، تم وضع أسس الحضارة الإسلامية العظيمة.

لقد حاول المسلمون التعرف عن كثب على العلوم والفكر والحضارة الموجودة في المناطق التي فتحوها، وتحروها واحدة تلو الأخرى في إطار عقيدة التوحيد الخالصة في الإسلام، وحاولوا خلق مفهوم جديد للحضارة.

وأثناء القيام بذلك، كان المفهوم الأساسي لديهم هو مفهوم "الحكمة"، التي تتكون من مزيج العقل والوحي، أي الوضع البشري وما فوق البشري. لأن القرآن الكريم يشير باستمرار إلى مفهوم الحكمة فيقول عز وجل: "ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا". وقد قال النبي : "الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها". فأصبحت كلمة "الحكمة" هي المفهوم الأساسي الذي مكّن الحضارة الإسلامية من التحول إلى حضارة عالمية. وإن التجلي الملموس لمفهوم الحكمة في الحياة الفكرية هو الفكر الإسلامي.

إن الفكر الإسلامي الذي يقدم مجموعة من المفاهيم المفهومة والمقبولة والواقعية والمتفتحة عن الله والكون والحياة والإنسان والموت وما بعده، دون الإخلال بعقل الإنسان وروحه وحياته، له بعدان أساسيان: أولهما البعد الرباني (الإلهي) وهو مبني على الوحي مباشرة (أي الكتاب والسنة) ؛ وثانيهما البعد الإنساني وهو البعد البشري الذي يمثل نتاج العقل والذكاء الإنساني. وبهذه الخاصية يكون الفكر الإسلامي نظامًا فكريًا شاملًا وعالميًا وأصيلًا للغاية، يمكنه أن يشمل الوجود برمته.

وفي هذا الصدد، يختلف هذا النظام الفكري عن أنظمة الفكر الأخرى في العالم، وله إمكانات قوية ومهمة للغاية في خلق وتطوير منظور عالمي وشامل جديد للفكر والحضارة التي تحتاجها البشرية بشدة اليوم.

وبعد أن اعتنق الأتراك الإسلام، أصبحوا قادة هذا الدين في العالم، لكنهم لم يكتفوا بذلك بل حاولوا أيضًا أن يجعلوا هذه الحضارة العالمية القائمة على التوحيد، مهيمنة على العالم كله.

المصادر والمراجع

- **البداية والنهاية؛**

ابن كثير، أبو الفدا عماد الدين إسماعيل بن عمر (ت. 774هـ/1373م).

القاهرة، 1358هـ.

- **الشقائق النعمانية في علوم الدولة العثمانية (حدائق الشقائق)؛**

طاش كوبري زاده أحمد أفندي؛

ترجمه إلى التركية مجدي محمد، دار الطباعة العامرة، إسطنبول، 1269هـ.

- **ظهر الإسلام؛**

أحمد أمين (1954م).

القاهرة، 1962م.

- **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون؛**

كاتب جلبي (ت. 1067هـ/1657م).

نشر: شرف الدين يالت قايا – كيليسلي معلم رفعت، إسطنبول، 1360–1362هـ/1941–1943م.

المصادر التركية والأجنبية

Banarlı, Nihad Sâmî, *Resimli Türk Edebiyatı Tarihi*, İstanbul, 1971.

Barthold, Vasilij Vladimiroviç, *Moğol İstilâsına Kadar Türkistan* (neşre haz. Hakkı Dursun Yıldız), Ankara, 1990.

d'AIvemy, M. Threse – Avicenna Latinus, *Archive d'Hûtoire Doctrina le et Litteraire du Moyen Age*, J. Vrin, 1978.

Saydı, Aydın, *Uluğ Bey ve Semerkand'daki İlim Faaliyeti Hakkında Ğıyâsüddîn-i Kâşî'nin Mektubu*, Ankara, 1985.

Bibliyografya

Banarlı, Nihad Sâmî, *Resimli Türk Edebiyatı Tarihi*, İstanbul, 1971.

Barthold, Vasilij Vladimiroviç, *Moğol İstilâsına Kadar Türkistan* (neşre haz. Hakkı Dursun Yıldız), Ankara, 1990.

d'AIvemy, M. Threse – Avicenna Latinus, *Archive d'Hûtoire Doctrina le et Litteraire du Moyen Age*, J. Vrin, 1978.

Emin, Ahmed, *Zuhru'l-İslâm*, Kahire, 1962.

İbn Kesîr, Ebü'l-Fidâ İmâdüddin İsmail b. Ömer, *el-Bidâye ve'n-nihâye*, Kahire, 1358.

Kâtib Çelebi, *Keşfü'z-zunûn an esâmi'l-kütüb ve'l-fünûn*, nşr. Şerefüddin Yaltkaya – Kilisli Muallim Rıfat, İstanbul, 1360-1362/1941-1943.

Saydı, Aydın, *Uluğ Bey ve Semerkand'daki İlim Faaliyeti Hakkında Ğıyâsüddîn-i Kâşî'nin Mektubu*, Ankara, 1985.

Taşköprizâde Ahmed Efendi, *eş-Şekâiku'n-nu'mâniyye fî ulûmi'd-devleti'l-Osmâniyye* (trc. Mecdî Muhammed), İstanbul: Dâru't-Tıbâati'l-Âmire, 1269.